

البَابُ الثَّانِي

الروح في الفكر العربي والإسلامي

obeikandi.com

الروح في الفكر العربي والإسلامي

وإذا كانت فكرة الروح قد شغلت العقل الإنساني كله منذ فجر التاريخ ، فقد شغلت بصفة خاصة سكان البلاد العربية ، حيث كانت مهد النبوات ومهبط الرسالات ، فقد كان العربي القديم وهو سارٍ في الصحراء بين السماء والمجولة والرمال الممتدة يتأمل في انفعال حار عميق ، طبيعة الحياة في هذا الكون : ليل ونهار .. ظلام ونور .. كواكب تتلألأ ثم تختفي .. وجود وفناء .. حياة تدب في الأشياء فتزدهر وتكتمل ثم يدهمها العدم فتتبدد وتتلاشى .. فيهتف : لا يمكن أن يوجد كل هذا عبثاً وبلا غاية .. فلا بد من قوة كبرى وراء هذا الكون .. قوة عليا لا يدركها فناء ولا يشوبها نقص ، تتحكم في كل هذه الكائنات وتهيمن عليها وتسيّرهما على هذا النحو الدقيق ، ويبدو أن فكرة الإيمان بدأت على هذا النحو ، ثم اهتدى العقل الإنساني بعد ذلك إلى أن كل هذه الكائنات من صنع الله ، وأن البشرية كلها نفحة من روح الله ، وأن هناك جوهرًا مجردًا يكمن في باطن الأشياء ويمنحها الحياة .. فإذا تركها دَبَّ إليها الفناء .. هذا الجوهر المجرد الذي يسرى في كل هذه الكائنات هو الروح . وتطورت البشرية عبر تاريخها الطويل وعرفت الرسالات السماوية ، وأبدعت الحضارات وتحكمت في الطبيعة وسخرتها لصالح الحياة ، ولكن معرفتها بهذا العالم المحجوب ظلت أقل من القليل .. لذا كان من الطبيعي أن تشغل هذه الفكرة المحجوبة العقل العربي ، وأن تؤثر في الضمير وتلهب الخيال وتترك بصماتها في الفن والأدب .

ومن روائع ما سجل من نثر وشعر حول الروح والنفس نورد في الصفحات التالية سطوراً قديمة من موعظة قس بن ساعدة الإيادي .. بليغ العرب في الجاهلية .. وأبياتاً من قصيدة النفس للرئيس ابن سينا .. ثم قصيدة الشاعر أحمد شوقي أمير شعراء مصر في العصر الحديث .

من موعظة قس بن ساعدة الإيادي قبل الإسلام^(١)

« أيها الناس : اسمعوا وعوا .. من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » .

« ليل داج .. ونهار ساج . وسماء ذات أبراج »

« ونجوم تزهـر . وبحار تنخر . وأرض مدحاة »

« وجبال مرساة .. وأنهار مجرة »

« إن في السماء لخبراً . وفي الأرض لعبراً »

« ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون »

« أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ »

ثم أنشد :

« في الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر »

« لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصائر »

« ورأيت قومي نحوها تمضي . الأكابر والأصاغر »

« أبقيت أني لا محالة حيث صار القوم صائر »

• • •

(١) الأوائل : أبي هلال العسكري - مطبعة دار أمل - طنجة المغرب الأقصى .

ففيما ذكرناه من كلام قس بن ساعدة الأيادي سواء منه النثر أو الشعر ،
نلمس الاهتمام بما وراء الحياة من أسرار وأخبار ، كان العربي قبل الإسلام
يحسها ، وكأنه يلمسها بيديه حين يؤكد « إن في السماء لخبراً » ثم إن قسا
يتحدث عن البعث بعد الموت في بلاغة حين يسأل : « أرضوا فأقاموا ؟ » أم
تركوا هناك فناموا » والمفروض طبعاً أن اليقظة تجيء بعد النوم ، كما سيأتي البعث
بعد الموت .. وهو يتكلم عن حتمية الموت يقيناً فيقول : « أيقنت أني لا محالة
حيث صار القوم صائر » . وكأنه يقرأ ما جاء بعد ذلك في القرآن (كل نفس
ذائقة الموت) . أو (كل من عليها فان) .

• • •

ومن قصيدة النفس للرئيس ابن سينا^(٢)

- ١ - هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
- ٢ - محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سمرت ولم تتبرقع
- ٣ - وصلت على كُرو إليك وربما كرهت لقاءك وهي ذات تفجع
- ٤ - أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البقع
- ٥ - وأظنها نسيت عهداً بالحمى ومنازلاً بفراقها لم تقنع
- ٦ - تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى بمدامع تهمي ولما تقطع ..
- ٧ - وتظل ساجدة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
- ٨ - إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها قصص عن الأوج الفسيح الأربع
- ٩ - حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
- ١٠ - سجت وقد كُشِفَ الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون المجمع
- ١١ - وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع
- ١٢ - وغدت تغرد فوق ذروة شاهق سام إلى قعر الخضيض الأوضع
- ١٣ - إن كان أرسلها الإله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع
- ١٤ - فهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
- ١٥ - وتعود عالمة بكل خفية في العالمين فخرقها لم يرقع
- ١٦ - وهي التي قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
- ١٧ - فكأنه برق تألق للحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

(٢) ابن سينا : هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ، أوسع أطباء المسلمين شهرة ، وأبعد فلاسفتهم ذكراً ، وهو فارسي الأصل ، حفظ القرآن ودرس الرياضيات والطبيعة والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة ، ثم وجه عنايته كلها لدراسة الطب فذاعت شهرته كطبيب .. ومن كتبه القانون في الطب الذي خلد ذكره في أوروبا . والشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات وتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

النفس (٣)

لأحمد شوقي*

الملقب « أمير شعراء مصر »

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعى
الصاحيات الضاحكات ودونها
يا دمية لا يستزاد جالها
ماذا على سلطانه من وقفة
بل ما يضرك لو سمحت بجلوة
ليس الحجاب لمن يعز مناله
أنت التي اتخذت الجبال لعزه
وهو الصنّاع يصوغ كل دقيقة
لمستك راحته ومسلّك روحه
الله في الأحبار من متها لك
من كل غاوى في طوية راشد
يتوهجون ويطفأون كأنهم
علموا فضايق بهم وشق طريقهم
ذهب (ابن مينا) لم يقرّ بك ماعة
هذا مقام كل عز دونه

هذى المحاسن ما خلقتن لبرقع
ستر الجلال وبعد شأو المطلع
زيديه حسن المحسن المتبرع
للضارعين وعطفة للخشع
إن العروس كثيرة المتطلع
إن الحجاب ليهين لم يمنع
من مظهر ولسره من موضع
وأدق منك بنانه لم تصنع
فأنى البديع على مثال المبدع
يضنو ومهتوك المسوح مصرع
عاصى الظواهر فى سريرة طيع
سرج بمعتك الرياح الأربع
والجاهلون على الطريق المهيّج
وتولت الحكماء لم تتمتع
شمس النهار بمثله لم تطمع

(٣) النفس : بمعنى الروح .

* أحمد شوقي : أمير شعراء مصر فى العصر الحديث ولد سنة ١٨٦٨م فى رحاب القصور الخديوية .

(فحمد) لك و(المسيح) ترجلا
ما بال (أحمد) عى عنك بيانه
ولسان (موسى) انحلّ إلا عقدة
لما حلت بآدم حلّ الحى
وأرى النبوة فى ذراك تكومت
وسقت (قرش) على لسان (محمد)
ومشت (موسى) فى الظلام مشرقا
حتى إذا طويت ورثت خلاها
قسمت منازلك الخطوط فترلا
وخلية بالنحل منك عميرة
وحظيرة قد أودعت غرر الدمى
نظر (الرئيس) إلى كمالك نظرة
فرآه منزلة تعرض دونها
لولا كمالك فى (الرئيس) ومثله
الله ثبت أرضه بدعائم
لو أن كل أنخى يراع بالغ
ذهب الكمال سدى وضاع محله
يانفس مثل الشمس أنت أشعة
فإذا طوى الله النهار تراجعت
لما نعت إلى المنازل غودرت
ضجت عليك معالما ومعاهداً
آذنتها بنوى فقالت ليت لم
ورداء جثمان لبست مرقم
كم بنت فيه وكم خفيت كأنه
أسأمت من ديباجة فقرعته
فرعت وما خفيت عليها غاية

وترجلت شمس النهار (ليوشع)
بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدع
من جانبيك علاجها لم ينجع
ومشى على الملأ السجود الركع
فى (يوسف) وتكلمت فى الموضع
بالبابلى من البيان المتع
وحدثه فى قلل الجبال اللمع
رفع الرحيق وسره لم يرفع
أترعن منك ومتزلا لم تترع
وخلية معمورة بالشيع
وحظيرة محرومة لم تودع
لم تحل من بصر الليب الأروع
قصر الحياة وجال وشك المصرع
لم تحسن الدنيا ولم تترع
هم حائط الدنيا وركن الجمع
شأو (الرئيس) وكل صاحب مبضع
فى العالم المتفاوت المتنوع
فى عامر وأشعة فى بلقع
شقى الأشعة فالتقت فى المرجع
دكا ومثلك فى المنازل مانعى
وبكت فراقك بالدموع الممع
تصل الجبال وليتها لم تقطع
يد الشباب على المشيب مبرقع
ثوب الممثل أو لباس المرفع
والخز أكفان إذا لم ينزع
لكن من يرد القيامة يفرع

ضرعت بأدمعها إليك وما درت
أنت الوفة لا الزمام لديك مذ
أزمنت فأنهلت دموعك رقة
بان الأحبة يوم بينك كلهم
أن السفينة أقلعت في الأدمع
موم ولا عهد الهوى بمضجع
ولو استطعت إقامة لم تززع
وذهبت بالماضي وبالتوقع

الروح عند عدد من مفكرى المسلمين

ولسنا هنا بصدد الإحاطة بكل ما كان لفكرة الروح من تأثير على جوانب الفكر العربى والإسلامى ، وإنما سنحاول فقط أن نعرض لمحات من آراء عدد من مفكرى المسلمين فى هذه المسألة ، هم الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، والرازى باعتبارهم ممن يمثلون العقل العربى على أرفع مستوى ، كما أنهم لم يقتصروا على الثقافة العربية وحدها .. بل كان لهم إلمام واسع بعلوم الأوائل (كما كانت تسمى فى زمانهم ثقافة اليونان والهنود والفرس) إلخ ، ثم نعرض لرأى الدكتور عبد الحليم محمود والكاتب / عباس محمود العقاد .

١ - الفارابى (٢٥٩هـ / ٣٣٩هـ) :

تناول أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى هذه القضية فى أهم مؤلفاته ، وهى عنده جوهر بسيط مبين للجسد .. وهى مرادفة للنفس .. وهى نفس فاضلة ونفس جاهلة .. فالأولى تعمل الخير دائماً ، حتى تنطبع عليه ويصبح سجية لها ، وهذه هى النفس الخالدة المطمئنة فى رحاب الله .. ويقول فى كتابه (الفرة المرضية) : إن الروح الذى لك من جوهر عالم الأمر ولا يتعين بإشارة ولا يتردد بين سكون وحركة ، ولذلك تدرك المعلوم الذى فات والمتنظر الذى هو آت وتسبح فى عالم الملكوت وتتقش من خاتم الجبروت (٤) والفارابى

(٤) الفرة المرضية للفارابى .

لا شك يذكرنا بأفلاطون وأرسطو وآراء الإغريق حول هذا الموضوع ، فهو يسبح في جو قريب من الأجواء التي كانوا يسبحون فيها .. والنفس الخالدة عند الفارابي هي التي تبلغ مرتبة العقل المستفاد ، وتصبح في غنى عن المادة قادرة على الاتصال بالعقل الفعال ، وهم الفارابي بهذا العقل الفعال ، فهو (الروح الأمين) أو روح القدس ، الذي يهب الصور للعقل الإنساني .

٢- ابن سينا :

هو أبو علي الحسين عبد الله بن سينا ، فارسي الأصل توفي سنة ٤٢٨ هـ . وابن سينا كالفارابي وفلاسفة المؤمنين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، وحاولوا التوفيق بينها وبين قيم الإسلام الفكرية ، وربما كان تأثره في هذه القضية أشد ، فهو يصطنع تعريف أرسطو المشهور للنفس فيعرفها بأنها كمال أول لجسم طبيعي إلى ذى حياة بالقوة^(٥) .

وبهذا التعريف يحدد ابن سينا نظريته لطبيعة النفس والروح ، فهي صورة للجسد وبداية لوظائفه الحيوية ، ثم هي مرتبطة به توجد بوجوده وتفنى بفنائها ، وقد كان ابن سينا يرى هذا الرأي في مرحلة من مراحل حياته ، ولكنه عاد بعد ذلك واهتدى إلى تصور مخالف فالنفس (جوهر مجرد مخالف للبدن مستقل عنه) . ثم هو يرى أن العقل قوة من قوى النفس ، والنامس عنده صنفان صنف مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية إلى أن يشتعل حدساً .. وهؤلاء يتلقون الوحي عن العقل الفعال ويعلمون كل شيء وتتكشف لهم المعقولات دفعة واحدة ، ويصف ابن سينا طريق هؤلاء بأنه ضرب من

(٥) د . قزاد الأهواني ابن سينا ص ٦٢ .

النوبة . واهتمام ابن سينا بهذا الموضوع ناشئ عن نظريته في السعادة .. سعادة النفس .. فهي حالة توصف بها بعد مفارقتها للجسد .. ولا يناها إلا هؤلاء الذين تخلصوا من شواغل البدن . وخلصوا على عالم القدس والسعادة وانتقشوا بالكمال الأعلى وخلصت لهم اللذات العليا وصنف بخلاف ذلك .. كذلك يقسم ابن سينا النفوس إلى نفوس بله ، ونفوس قدسية . فالأولى التي لم تكتسب الشوق إذا فارقت البدن غير مكتسبة للهيئات البدنية الردية صارت إلى سعة من رحمة الله ، فإن اكتسبتها تتعذب عذاباً شديداً يفقد البدن . أما الأنفس القدسية ، فإنها تبرأ عن مثل هذه الأحوال وتتصل بكاملها بالذات وتنغمس في اللذة العقلية ، فالسعادة عند ابن سينا أن تتخلص النفس من شهوات البدن وتعيش حياة عقلية عليا .

٣ - الغزالي (٤٥٠ هـ / ٥٥٥ هـ) :

أما حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي (صاحب إحياء علوم الدين) فقد كان ظاهرة من أبرز ظواهر الفكر الإنساني ، جاء في الفكر الإسلامي كالإعصار ، فحرك كل شيء واقتلع في طريقه كثيراً من الأشجار التي كانت قد غرسها الفلسفات الدخيلة في التربة الإسلامية ، ودمر كثيراً من أفكار الفلاسفة وعزلهم عن التأثير في الوجدان العربي لأعوام طويلة^(٦) .

وموقفه من عالم الروح من أصدق المواقف وأعماقها فهو صورة فريدة للفكر الإنساني العظيم .. الثقافة عنده مجاهدة ، والفكر عنده إشراق ، ووجود المعرفة عنده علم وسلوك .. ولقد توصل إلى كل أولئك من خلال تجربة ثقافية وروحية من أعمق التجارب التي مرت بمفكر في العالم .. عانى خلالها المشقة الفادحة

(٦) أبو حامد الغزالي في ذكره المئوية التاسعة ص ١٠٧ .

التي أوهنت جسمه وأرهقت روحه وكادت تصل به إلى الجنون . ولذلك فهو عندما يتحدث عن الروح أو النفس أو القلب وكلها مترادفات عنده ، فإنما يتحدث عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية ، فهو يقول في كتابه (كيمياء السعادة) :

(الإنسان من عالم الخلق من جانب ومن عالم الأمر من جانب .. فكل شيء يجوز عليه المساحة والمقدار والكيفية ، فهو من عالم الخلق .. وليس للقلب مساحة ولا مقدار ، فهو من عالم الأمر) .

والغزالي يقصد بعالم الأمر عالم الغيب ، فالقلب عنده أو الروح من عالم الغيب ، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود ، وللقلب باب يطل على الباطن يحصل الإنسان من خلاله كل المعارف دفعة واحدة في حالة من حالات (الكشف) .

ويؤكد الغزالي أن أبواب القلوب يكشفون بأسرار الملوكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة .. وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة ، كما يكون في المنام وهذا أعلى الدرجات . ويرى الغزالي أن الروح محجوبة في هذا العالم المادى الصارم ، والأرواح الخيرة تجاهد وتجادل حتى تتخلص من هذا السجن ، ويزول الحجاب بالموت ، وتصعد هذه الأرواح الطاهرة لتتعمق في رحاب الله . واهتم الغزالي اهتماماً كبيراً بفكرة الثواب والعقاب في العالم الآخر .

ومصير الروح في هذا العالم ولقد ألحت هذه الفكرة على عقول الفلاسفة المسلمين وبعض الفلاسفة الماديين ، لأنها كانت تتصل بقضية البعث بعد الموت والحشر ، وهل تحشر الأجساد والأرواح وتعود كل روح إلى جسدها ؟ أو أن

الحياة في العالم الآخر تقتصر على الأرواح ؟ أو أن كل شيء ينحل ويعود إلى التراب وتنتهى دراما الحياة فلا بعث ولا حشر كما يقول الماديون ؟ ولقد اشتبك الغزالي مع كل الفلاسفة الذين خاضوا في هذا الأمر بعنف وفند آراءهم ، وسخر من تصوراتهم . يقول : (اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة ، فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد ، وأن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً ، وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات تستعملها حتى إنها لتبطل باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين . وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب ، والقلب هنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة .. فكل ما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد . والغزالي يقرر أن الإنسان ينكشف له بالموت ما لم ينكشف له بالحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم (والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من سيئاته وحسناته ، وقد كان ذلك مسطوراً ، في جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئة إلا تحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيماً ..) أما هؤلاء الذين عاشوا في الدنيا يزرعون للآخرة فهم الذين يتخلصون لذات النعيم ، ويؤكد الغزالي أن أعظم اللذات الخالدة للشهداء

الذين قتلوا في سبيل الله ، لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله .. وهكذا تختلط في تصور الغزالي لعالم الروح الومضات الصوفية بالتأملات النفسية بالنظرات العلمية .. وهو لهذا من أهم مفكرى العرب والمسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع الجليل بالدرس والتحليل .

٤- ابن رشد (٥٢٥ هـ / ٥٩٥ هـ) (٧) :

أراد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، أكبر شراح أرسطو وأبعد فلاسفة الإسلام شهرة ، أن يوفق بين تعريف النفس لأرسطوطاليس وتعريفها لدى الرئيس ابن سينا ، فقال إنها صورة للبدن وجوهر مستقل في نفس الوقت . فهي صورة للبدن بمعنى خاص وهو أنه لا وجود للبدن دونها ، ولا يمكن للعقل تصوره إلا بها ، كما أنه لا وجود للتمثال إلا بصورته . ومن هذا يتبين لنا أن الفيلسوف القرطبي أخذ عن أرسطو عبارته في تعريف النفس فقال : إنها (هي التي تجري منها مجرى الصورة لا مجرى الهيمولي (المادة) . ولكنه لم يكن أرسطوطاليسيا بمعنى الكلمة ، فقد فسر أرسطو على نحو يقربه إلى حد كبير من آراء المسلمين في طبيعة النفس ، وقال في تلخيص كتاب النفس (٨)

إنه يجب التفرقة بين نفوس ثلاث هي :

١ - النفس النباتية .

٢ - النفس الحيوانية .

٣ - النفس الإنسانية أو العاقلة .

أما النفسان الأوليان فليستا مفارقتين للبدن ولا يمكن أن تنفصلا عنه بحال

(٧) عن كتاب في النفس والعقل للدكتور محمود قاسم .

(٨) مخطوط في مكتبة باريس الأهلية تحت رقم Mns fonds hébeu. 1009.

ما ، فهي توجدان بوجود النبات أو الحيوان وتفتيان بفنائها ، أما النفس الإنسانية : فإنها من جنس آخر ، وابن رشد يميل إلى تفسير مذهب أرسطو في النفس على نحو يتفق مع القول بروحانيتها ، ويدل على ذلك أنه يعرفها بأنها الجوهر الذى هو الصورة ، ومن يقول مثله بأنها جوهر يعترف ضمناً بأنها قائمة بذاتها ، وبأن الإنسان مركب من جوهرين : أحدهما نفسه ، والآخر بدنه . والذى دعا ابن رشد إلى تفسير أرسطو على هذا النحو أنه فطن إلى ما يحجره تعريف أرسطو للنفس من صعوبات ، لأنها لا تتفق مع روح الإسلام وعقائده . ويرى ابن رشد أن حل هذه الصعوبات ليس باليسير ، فالكلام في أمر النفس غامض جداً ، وإنما اختص الله به من الناس العلماء الراسخين في العلم . ولذلك قال سبحانه مجيئاً في هذه المسألة الجمهور عندما سأله بأن هذا الطور من السؤال ليس من أطوارهم في قوله سبحانه : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ولكن ابن رشد استطاع أن يوفق بين تعريف أرسطو للنفس الذى ينكر خلودها ، وبين رأى الرئيس ابن سينا الذى ينكر أن النفس صورة للبدن ، أى يفصل بين معنيين .. الكمال والصورة ، إذ قال ابن رشد إن النفس وإن كانت صورة للبدن كما يقول أرسطو ، إلا أنها صورة من جنس خاص ، فإنها ليست كباقي الصور التى لا تنفك عن أجسامها ، فلا يمكن تصورها مستقلة عنها وقائمة بذاتها ، بل إنها جوهر مستقل ، وهى فى الوقت نفسه صورة للبدن حلت فيه لحكمة إلهية ، وهى إلى جانب ذلك ذات روحية غير جسمية ، فابن رشد جعل النفس ذاتاً مستقلة تدبر الجسم ، وهى فى نفس الوقت صورته .

٥ - الرازي :

وقد أجمل الإمام الرازي أسباب الإعضال في مسألة الروح فقال : (إنهم سألوا عن الروح وأنه صلوات الله وسلامه عليه أجاب على أحسن الوجوه . وبيناه أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح والسؤال يقع على وجوه . أحدها : أن يقال ماهيته ؟ هل هو متحيز أو حال في المتحيز ، أو موجود غير متحيز ولا حال فيه ؟

وثانيها : أن يقال أهو قديم أم حادث ؟

وثالثها : أن يقال هل هو يبق بعد فناء الأجسام أو يفنى ؟

ورابعها : أن يقال ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها ؟

وبالجملة : فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة وليست في الآية دلالة على أنهم عن أى هذه المسائل سألوا . إلا أنه تعالى ذكر في الجواب (قل الروح من أمر ربي) . وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين :

إحدهما : السؤال عن الماهية ، أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل البدن متولدة عن امتزاج الطبايع والأخلاط ؟ أم هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ، أو عن عرض آخر قائم بهذه الأجسام ، أو عن موجود يغاير هذه الأشياء ؟ فأجاب الله تعالى بأنه موجود مغاير لهذه الأشياء . بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله : كن فيكون . فهو موجود يحدث من أمر الله ، وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة للجسد ، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته الخصوصية نفيه مطلقاً ، وهو المقصود من قوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

وثانيتهما : السؤال عن قدمها وحديثها ، فإن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل

كقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيد) . فقوله : من أمر ربي ، معناه من فعل ربي ، فهذا الجواب يدل على أنهم سألوه عن قدمه وحدوثه ، فقال : بلى هو حادث . وإنما حصل بفعل الله وتكوينه . ثم احتج على حدوثه بقوله : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة خالية من العلوم كلها ، ثم تحصل فيها المعارف والعلوم ، فهي لا تزال متغيرة من حال إلى حال ، والتغير من أمارات الحدوث . وتلخيص الإمام الرازي للمعضلة شامل لجوانبها المتعددة ، كما بدت للمفكرين من الفلاسفة الأقدمين وبخاصة علماء الكلام . ولا نظن أن المحدثين جاءوا بغرض من الأغراض في تفسير الروح لم يسبقهم إليه الأقدمون . مع ملاحظة الفارق في بحوث علم الحياة ووظائف الأعضاء بين علماء اليوم وعلماء الزمن القديم . فمن المفكرين الأقدمين من قال إن الروح أجسام لطيفة سارية في البدن سريان ماء الورد في الورد . باقية من أول العمر إلى آخره لا يتطرق إليه تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء . ومنهم من قال : إنه جزء لا يتجزأ في القلب . أو قال إنه جسم هوائى في القلب ، أو قال إنه جسم هوائى في الدماغ . أو قال إنه قوة تلى الدماغ وهو مبدأ الحس والحركة . أو قال إنه أجزاء نارية وهي المسماة بالحرارة الغريزية . أو قال إنه الدم المعتدل تقوى الحياة باعتداله وتغنى بفنائه . أو قال إنه جسم بخارى تكون من طاقة الأخلاط وبخاريتها كتكون الأخلاط من كثافتها .

وهو الحامل للقوى الثلاث وهي قوة الروح الحيوانى ، وقوة الروح النفسانى ، وقوة الروح الطبيعى .. ومنهم من قال بأن الروح جوهر مجرد يتفاوت في التجرد والصفاء ، فهو في العارفين الخالصين أصفى منه في غيرهم من ذوى الأرواح .

وممنهم من قال غير ذلك ولم يخرج عن فحوى قرص من تلك الفروض ، كما أحصاها التهانوى صاحب كشاف اصطلاحات الفنون في مادة الروح^(٩) .

الروح والنفس ورأى بعض الصوفية

١ - القشيري (٣٧٦ هـ / ٤٦٥ هـ) :

يحدثنا عبد الكريم أبو القاسم القشيري ، بأن المراد بالنفس عند القوم هو ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، وما كان مذموماً من أخلاقه وأفعاله (كالمعاصي والمخالفات والأخلاق الدنيئة التي إذا عاجلها بالمنازلة والمجاهدة انتفت عنه) .

ويذكر القشيري فوق هذا الذى يحدد معناها بمتعلقاتها تعريفاً يمكننا أن نقول عنه : إنه يحدد معناها بجوهرها وطبيعتها الحقيقية ، فمن المحتمل عنده أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القلب الذى هو الجسم ، وأنها محل للأخلاق المذمومة ، كما أن الروح لطيفة في هذا القلب وأنها محل للأخلاق المحمودة ، وأن جملة الروح والنفس والبدن تكون إنساناً واحداً بعضه مسخر لبعض . ويلاحظ القشيري إلى جانب هذا أن حقيقة الروح مختلف فيها عند المحققين من أهل السنة : منهم من يقول إن الحياة تسرى في القوالب ما دامت الأرواح مودعة فيها ، لأن الأرواح لطيفة ربابية ، وللأرواح ترق في حال النوم ومفارقة للأبدان ثم رجوع إليها . والإنسان روح وجسد . ومن قال إن الأرواح قديمة غير مخلوقة فقد أخطأ خطأ عظيماً^(١٠) .

فاذا نظرنا إلى هذه الآراء المختلفة نظرة فاحصة رأينا أنها تتفق من وجه

(٩) سبق الإشارة إليه في ملخل الكتاب .

(١٠) الرسالة القشيرية ص ٤٤ / ٤٥ ألفها سنة ٤٤٣ هـ .

وتختلف من وجه ، ورأينا أن الاختلاف بينهما قوى إلى حد يؤدي إلى الخلط والاضطراب للذين يؤديان بدورهما إلى أن نقف من المسألة موقف الحيرة والتردد ، لا ندرى هل الروح هي النفس أو غيرها ، وهل يصح أن نطلق خصائص الروح على النفس أو لا يصح :

فأما وجه الاتفاق فيظهر لك إذا لاحظت أن ابن حبيب وابن عباس والمحققين من أهل السنة مجمعون على أن الروح هي الحياة أو مصدر الحياة على أقل تقدير ، وأما وجه الخلاف فيبدو من أن ابن حبيب ينظر إلى النفس على أنها شهوية تلتذ وتألم ، وابن عباس ينظر إليها على أنها عاقلة تدرك وتميز وتحكم ولا يقف الاتفاق والخلاف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى شيء آخر . فابن حبيب وابن عباس متفقان على أن النفس وحدها تتوفى في حال النوم ، ويخالفها في ذلك بعض المحققين من أهل السنة ، إذ يذهبون إلى أن الروح هي التي تفارق البدن وترقى في حال النوم .

٢ - الجرجاني : (١١)

ومها يكن من أمر هذا الخلاف فقد حاول الجرجاني التخلص من الخلط ، في تحديد طبيعة الروح والنفس في تعريفاته ، حيث كشف لنا عن حقيقة النفس والروح فقال عن الأولى ما نصه :

« هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية . وسماها اللطيف الخبير الروح (الحيوانية) : فهو جوهر مشرف للبدن ، وعند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه . فثبت أن النوم والموت من جنس واحد ،

(١١) التعريفات للجرجاني مادة روح ص ٧٦ / ٧٧ ومادة ص ١٦٤ / ١٦٥ .

لأن الموت هو الانقطاع الكلى ، والنوم هو الانقطاع الناقص . وثبت أن الخالق جل وعلا دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب : الأول إن بلغ ضوء النفس إلى جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة ، وإن انقطع ظاهره عن باطنه فهو النوم أو بالكلية فهو الموت .

وقال عن الروح ما نصه :

« الروح الإنسانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان الراكبة على الروح الحيوانى نازل من عالم الأمر تعجز العقول عن إدراك كنهه ، وذلك الروح قد يكون مجرداً وقد يكون منطبقاً في البدن » .

٣- ابن الفارض (٥٧٧ هـ / ٦٣٢ هـ) :

لم يكن عمر بن أبى الحسن بن الفارض الحمذى الأصل المصرى المولد الصوفى الشاعر ، متحريراً الدقة ، والوضوح فى لفظى النفس والروح إلى الحد الذى تتمكن معه من معرفة حقيقة مذهبه ، فنحن نقرأ بعض شعره فنحس أن النفس عنده هى الروح ، أو أن الروح هى النفس حيث يستعملها كمترادفين لمعنى واحد . ثم نقرأ فتبين أن النفس غير الروح والروح غير النفس . إذ ينتهى بنا إلى أن النفس بشرية مشوية بشوائب الحس ورغبات البدن على عكس الروح ، فإنها إلهية من عالم الأمر ، فالنفس أقل مرتبة فى حبيها ومعرفتها عن الروح ، لأن النفس محل الشهوات والحظوظ الباطلة والأمانى الخائلة ، أما الروح فإنها محل الحب الإلهى الذى منحه فى عالم الأمر ومركز الشهود الذى تدرك فيه الذات الإلهية إدراكاً عينياً لا مدخل للحواس فيه ^(١٢) .

ومن هنا يكون لابن الفارض مذهبان متناقضان فى مسألة هامة كهذه .

(١٢) ابن الفارض والحب الإلهى : د . محمد مصطفى حلمى - الطبعة الأولى ١٩٤٥ .

ومثال ذلك (في قصيدته الغائية) :

مالي سوى روجي وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف
وفي قصيدة أخرى :

أغار عليها أن أهم بحبا وأعرف مقداري فأنكر غيرتي
فتختلس الروح ارتياحاً لها وما أبرئ نفسي من توهم منية
فهو إن كان في القسم الأول من شعره شاعراً أكثر منه صوفياً .. فهو في
قصيدته الثانية الكبرى صوفي بكل معاني الكلمة . وإذا نحن استثنينا من شعره
الآبيات التي يقع فيها الخلط بين النفس والروح رأينا أن القاعدة العامة عنده هي
التفرقة بينهما ، فهو يذهب إلى أن النفس مركز للصفات الحسية والشهوات
البدنية والأخلاق المذمومة مما يحول بينها وبين الاتصال بالحق وشعورها باتحادها
معه وشهودها له .

فإذا أردنا بعد معرفتنا لطبيعة النفس عند ابن الفارض أن نتعرف طبيعة
الروح ، وكيف كان الشاعر يثبت لكل من الطبيعتين ما يميز إحداها عن
الأخرى ، رأينا أن أخص ما تمتاز به الروح سبقها في الوجود على البدن ، فهي
موجودة في عالم الأمر قبل أن يوجد البدن في عالم الشهادة ، وهي مستقلة في
حبها للذات وفي معرفتها لها استقلالاً تاماً عن البدن وحواسه .. ومما يدل على
هذه التفرقة عند ابن الفارض قوله :

وبعد فحالي فيك قامت بنفسها وبيني في سبق روجي بنيتي

وقال في هذا المعنى :

منحت ولاها يوم لا يوم قبل أن بدت عند أخذ العهد في أوليتي
فلت ولاها لا بسمع مناظر ولا باكتساب واجتلاب جيلة
وهمت بها في عالم الأمر حيث لا ظهور وكانت نشوق قبل نشأتني

كذلك ليس أدل عنده على التفريق بين النفس والروح من قوله :
فبالنفس أشباح الوجود تنعمت وبالروح أرواح الشهود تهنت
ولكن ما عسى أن يكون مكان البدن من النفس والروح وما ينكشف لها من
المعارف عند ابن الفارض ؟

ينظر ابن الفارض إلى البدن نظرة لا تقل في قيمتها النفسية عن نظرة علماء
النفس :

فالبدن عنده محل الإحساسات ، والروح محل المعاني الخفية المقابلة
للمحسوسات الظاهرة . وبعبارة أخرى نقول مع ابن الفارض إن حواس البدن
تدرك بواسطة النفس المتعلقة به صور الأشياء في عالم الشهادة . على حين أن
الروح بفضل تجردها عن البدن وحواسه تدرك معاني هذه الصور في عالم
الغيب .

ونستخلص من كل ما تقدم أن الإنسان في نظر ابن الفارض روح ونفس
وبدن ، وأن لكل من هذه الأشياء الثلاثة ما يميزه عن الآخر ، سواء في
موضوعه أم في طبيعته . وليس معنى هذا أن في الإنسان جزءاً مستقلاً عن غيره
من الأجزاء ، سَمِيَ بالروح واختص بإدراك المعاني الخفية ، وجزءاً ثانياً مستقلاً
سمى بالنفس واختص بتدبير البدن ، وجزءاً ثالثاً سَمِيَ بالبدن واختص بإدراك
الصور المحسوسة ، بل الإنسان المؤلف من هذه الأجزاء عبارة عن وحدة بعضها
مسخر لبعض ومتصل ببعض . فالإنسان عنده وحدة على الرغم من
الإحساسات المختلفة التي تحسها نفسه بطريق الحواس المتعددة .

ونعرض إتماماً للفائدة من الكتب النادرة - ما تلقيناه من كنوز السلف عن
« حقيقة الإنسان والروح الجوال في العوالم » للإمام العلامة جلال الدين
محمد بن سعد الدين أسعد الصديقي الدواني المتوفى سنة ٩٠٨ هـ . وقد عرف

الكتاب وترجم للمؤلف وعلق عليه المحقق الكبير الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً - وقد عني بنشره ووقف على طبعه (الطبعة الأولى في شهر شعبان ١٣٦٦ هـ الموافق يونية ١٩٤٧ م) السيد / السيد عزت العطار الحسيني وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) .
« الحمد لله الذي جعل الروح سرّاً من الأسرار الخفية ، استأثر بعلمه وتعليمه لذاته العلية ، والصلاة والسلام على أشرف البرية نبينا محمد سيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين » (١٣) .
أما بعد : فإن شره العقول حمل الإنسان على الخوض في كل مكان ، في مباحث الروح التي صعبت مسالكها ، وعلت مداركها ، ولعلماء الإسلام قديماً وحديثاً بحوث مستفيضة في ذلك معروفة ، بل لفلاسفة الغرب اشتغال طويل عريض في المدة الأخيرة بمباحث النفس وأحوالها ، وبدراسة الروح الإنساني وما إلى ذلك بمثابة ، محاولين إدخال الأرواح البشرية تحت سلطان تصرفهم المادي ، بتجارب يتخلون إمكان إجرائها في إحضارها ومخاطبتها ، شأنهم في مغامراتهم في جميع التجارب المادية ، وستبدى الأيام عن مرد أمر هؤلاء الباحثين المندفعين بشره العقول .

والإنسان بطبعه إذا خلا بنفسه لا يخلو من التفكير في شئون الروح ، وعجائب أسرار الله فيه فيرغب في الاطلاع على ما قاله أساطين أهل العلم في

(١٣) كلمة الناشر.

تلك المسائل العويصة . لتعرف صلة الروح بالجسد ، ووجه انقطاع تلك الصلة عند حلول الموت إلى غير ذلك من الشئون الروحية ، رغبة منه في ازدياد العلم من هذه الناحية على وعورة هذه المسالك . ولقد شغلتنى هذه الأفكار مدة غير وجيزة ، وما زالت تشغلنى إلى الآن ، وهذا ما جعلنى أوالى السؤال والبحث عندهم أثق بهم من أهل العلم والفضل ، عن علماء الإسلام الذين كتبوا فى هذا الموضوع وعن الكتب المدونة فيه المطبوع منها والمخطوط ، ومن استرشدت برأيهم صاحب الفضيلة العالم الجليل السيد محمد رشيد الخواصلى الدمشقى ، فأرشدنى حفظه الله تعالى إلى رسالة مخطوطة عنوانها « حقيقة الإنسان » للإمام جلال الدين الدوانى ، موجودة عند الأستاذ الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى الخلافة العثمانية سابقاً ، ونزيل القاهرة الآن أمد الله فى عمره وأنها لرسالة على صغر حجمها تشفى غلة الباحث إلى أمد بعيد ، وتفتح أفقاً جديداً فى هذا الموضوع الخطير .

فقصدت ساحة مولانا الكوثرى وطرقت بابه لما لى من الدالة على فضيلته ، ورجوت منه أن يتكرم علىّ بالرسالة المذكورة ، ويسمح لى بنشرها لتغذية المكتبة العربية الإسلامية ، وأن يتكرم بكتابة مقدمة لها وترجمة لمؤلفها مع التعليق عليها فأجابنى حفظه الله تعالى وأبقاه إلى رغبتي ، كما هى عادته فى نشر العلوم وتثقيف العقول فكتب لها مقدمة وجيزة ، وعلق عليها تعليقاً علمياً مفيداً ، وها هى ذى الرسالة أقدمها لقراء العربية ، ورجال العلم ، والفلسفة راجياً أن تنال تقديرهم .

والله سبحانه وتعالى أسأل التوفيق فى الدنيا والرحمة والغفران فى الآخرة .

الناشر

السيد عزت العطار الحسيني

حقيقة الإنسان

رسالة بديعة للعلامة جلال الدين محمد بن سعد الدين أسعد الصديقي الدواني ، بتشديد الواو ، نسبة إلى دوان على وزن شداد . موضع في كازرون بأرض فارس قرب شيراز ، وهو ممن جمع بين العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية ، وكان يرحل إليه من أقاصى البلدان لتلقى العلم منه .

وحقيقة الإنسان كما هو موضوع هذه الرسالة له ناحيتان ناحية الهيكل الجسماني وهو بطبعه يتهافت على الملمات السفلية ، وناحية الروح وهو لطيفة ربانية حيثة الطيران إلى المعالي ، ويعجز أكثر العقول عن درك كنه حقيقة الروح ذلك الأمر الرباني العجيب ، وللروح والنفس والقلب والعقل إطلاقات في اصطلاحات أهل العلم ، قد تتلاقى أو تتفارق وليس هذا موضع إيضاح ذلك ، وقد عني الغزالي في عجائب القلب بشرح تلك الاصطلاحات . وأفراد الإنسان على منازل متفاوتة في صلتهم بالناحيتين ، فمن غلب عليه الانهالك في الملاذ الجسمية فهو ملحق بالأنعام ، قال الله تعالى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ، ومن خلع من سلطان الملاذ الجسدية وغلب عليه جانب تلك اللطيفة الربانية ، فهو ملحق بالملائكة على مدارج متصاعدة ، ومن تجاذبه الجانبان من غير أن يتغلب فيه أحد الجانبين على الآخر فهو المجاهد لنفسه وقد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وقد اختلف أهل العلم في الروح الذي اعتبرناه لطيفة ربانية ، ثم بها سلطانه على الكون هل هو جسم لطيف يحل في الجسم الكثيف الإنساني - وهو

مذهب الجمهور - أو جوهر مجرد لا مكاني ، لا يوصف بالخلول والدخول ولا بالخروج والانفصال وغير ذلك من أوصاف الأجسام ، بل يوصف بالتعلق به تعلق تدبير ويقطع الموت تعلقه به ذلك التعلق ، والناس في تفهم ذلك على أنحاء فالعامي لا يتصور موجوداً كهذا في حين أن الخاصة لا ينكرونه وإن دقت مداركه ، ولهم في تجرد الروح أدلة ليس الجمهور على قبولها ، ومن مال إلى تجرد الروح أبو منصور الماتريدي والحلي صاحب (شعب الإيمان) والراغب الأصفهاني ، والغزالي ، والرازي ، والبيضاوي ، وكثير غيرهم ، ومن أحسن من تكلم في ذلك البطليوسي في الحقائق .

ومن أدلة القائلين بتجرد الروح الذي هو النفس الناطقة أن معلوماته لا تقف عند حد ، فلو كان الروح جسماً لكانت معلوماته واقفة عند حد لتعذر ارتسام ما لا نهاية له من الصور في جسم محدود ، وتفهم تجرد الروح يعين كثيراً على فهم تنزه الإله جل شأنه من الزمان والزمانيات والمكان والمكانيات ، وهذا ما لا يرقى إليه فهم العامي أصلاً فالواجب الاكتفاء بالتنزيه العام في إثبات الصفات العليا من غير خوض في ذلك وهذا كاف للجميع في النجاة . لكن شره العقول يحمل الإنسان على الخوض فيما لا قبل له به فيضل بسبب الخوض كثير من البشر في وادي الخيرة ، بل قال الغزالي في (النفخ والتسوية) : الناس قسمان عوام وخواص ، أما من غلبت على طبعه العامية فلا يقبل كون الله سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه ، فضلاً عن أن يقبل ذلك في الروح الإنساني ، وأطال الكلام في ذلك إلى أن قال : ومن كانت العامية غلبت عليه - كأكثر الكرامية والحنبلية - جعل الإله جسماً إذ لا يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً إليه . ومن ترقى عن العامية قليلاً نفى الجسمية ، وما أطاق أن ينفي عوارض الجسمية فأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجوداً لا في جهة

لكنهم أقالوا أن تكون هذه الصفة لغير الله ، حتى نفى جمهورهم تجرد الروح -
ثم أفاض الغزالي في ترجيح ما ارتآه في هذا الصدد .

قال البدر العيني في شرح البخارى (٢ - ٦٠١) عند الكلام في الروح :
هو جوهر لطيف نورانى ، يكدره الغذاء والأشياء الرديئة الدنيئة ، مدرك
للجزئيات والكمالات حاصل في البدن متصرف فيه ، غنى عن الاغذاء ، برىء
عن التحلل والبقاء ، ولهذا يبقى بعد فناء البدن إذ ليست له حاجة إلى البدن ،
ومثل هذا الجوهر لا يكون من عالم العنصر بل من عالم الملكوت ، فمن شأنه
ألا يضره خلل البدن ، ويلتذ بما يلائمه ويتألم بما ينافيه ، والدليل على ذلك قوله
تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم) الآية ،
وقوله ﷺ : إذا وضع الميت على نعشه رفرف روحه ويقول : (يا أهلى
ويا ولدى) . فإن قلت كيف يفسر الروح وقد قال تعالى : (قل الروح من أمر
ربى) قلت معناه من الإبداعات الكائنة يكون من غير مدة وتولد من أصل
١ . هـ . وفى فيض البارى (٣ - ٤٢٥) عند الكلام في حياة الشهداء : واعلم
أن الحديث أسند الأكل والشرب إلى النسمة دون الجسد ، فإنه فى التراب فدل
على أن النسمة غير الجسد ، وكذلك غير الروح ، لأن الروح لا يسند إليها
الأكل والشرب ما لم تتصل بجسد مادى ١ . هـ .

ومن اطلع على ما ألفت فى الروح من الكتب ، ثم طالع رسالة الدوائى هذه
يجدها على صغرها بديعة الأسلوب جملة الفوائد ، تطرق بحوثاً سكنت عنها
آخرون ، وتعرض لبيان الروح الجوال فى العوالم بمغادرته الجسم فى أثناء النوم ،
وللروح المحتفظة بصلة الهيكل الجسمانى الكثيف بالجسم اللطيف الذى ذكرناه
بالروح الجوال ، وتصرفات الروح الخارقة للعادات وغير ذلك مما يفتح أفقاً
واسعاً للباحثين ، وينير كثيراً من نواحي هذا البحث العويص المتشعب على

مذاق خاص مزيج بالتصوف والفلسفة يهّم به كثير من الناظرين . ففي نشرها فوائد للروحانيين ، والله ولي النفع ، ومنه التوفيق والتسديد .

محمد زاهد الكوثري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق آدم على صورته ^(١٤) ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد الذي ظهر بحقيقته ، وعلى آله وصحبه خزنة علومه وسلاك طريقته بشريعته . وبعد :

فهذه رسالة في حقيقة الإنسان ، وما ركبه الله تعالى فيه ، واجب حفظها للأذكياء لكثرة فوائدها . ووفرة عوائدها ، وهى من مواهب الحق عز وجل ، تعبت في تأليفها مدة خمسة أعوام لكوني أحببت أن أثبت معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء ، بالدليل العقلي لأجل إلزام الخصماء . وهذا لا ييسر إلا بعد معرفة خواص الإنسان ، ومعرفة حقيقته . وما هو مركب منه ، والله الهادى لا إله غيره .

(١٤) الضمير راجع لآدم فيكون المؤلف حمد الله سبحانه على خلق آدم ونبه في أحسن تقويم ، على الشكل المختار لهم والصفات المتخيرة لآدم ونبه ، لكون ذلك كله أبدع ما خلق عليه مخلوق مما يمكنه من وجوه التصرف ، وفيه إشارة إلى حديث البخارى ومسلم عند ذكرهما طول آدم في أول الخلقة ، وجزم الخطأ برجوع الضمير إلى آدم لقرنه واستحالة التخاطب على الله ، وكذا في حديث آخر في اجتناب ضرب وجه الحادم لكون وجه هذا المضروب كوجه آدم أبى كل إنسان ، بحيث يجب عليه بره واحترامه . وأما حديث (على صورة الرحمن) في بعض الروايات فتغيير من بعض الرواة على فهمه المعوج ، وليس بلفظ الرسول ، وقد رد ابن خزيمة في (كتاب التوحيد) هذه الرواية بعلل إرسال الثورى على خلاف الأعمش ، وعنتنة الأعمش ، وعنتنة حبيب بن أبى ثابت وهما مدلسان ، والمدلس إذا عنع نرد روايته ، والله سبحانه هو مصور كل ذى صورة وليس بذى صورة على خلاف اعتقاد المجسمة كما هو مشروح في دفع الشبه لابن الجوزى والسيف الصقيل للثق السبكي والأسماء والصفات للبيهي .

اعلم أن الإنسان مركب من ثلاثة أشياء . من جسم كثيف . وجسم لطيف . وروح ، وإن شئت زيادة إيضاح . فاعلم أن جسمك الكثيف هو الجسم الراقد في الفراش حالة النوم ، وجسمك اللطيف هو الجسم الذى يسير في النوم ، والروح هو الرابطة بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف وهو الاستعداد^(١٥) المودع فيه المسمى بالروح . ويحصل الموت بافتراق الجسمين إلى يوم القيامة كما ستقف عليه .

ثم اعلم أن الفناء للجسم الكثيف دون الجسم اللطيف والروح ، فإن قلت هل الفناء على الجسم الكثيف دونها عام في جملة الأجسام من الكفار ، والمؤمنين ، والأولياء وغيرهم أم لا ؟ قلت نعم عام في جميعها إلا ما استثنى الشارع من أجسام الأنبياء والشهداء ، وبعض الأولياء . فإن قلت ما الدليل على بقاءها ؟ قلت : أما الكفار فقد ورد عن النبي ﷺ أنه مر بقلب بدر^(١٦) فخطب أموات الكفار بقوله : (إني وجدت ما وعدنى ربي حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) ، فقبل للنبي ﷺ : أتخطب عظاماً أرمت فقال ﷺ : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول لكنهم لا يحيون » .

وأما المؤمنون فقد ثبت أيضاً أنه ، ﷺ ، خاطبهم وسلم عليهم وثبت أيضاً في الحديث الصحيح النبوى علم الميت بمن يزوره ، في قبره وفرحه بزائره ، ورده سلامه ، وتأذيه ممن يجلس على قبره . وفي البخارى^(١٧) أن أحد الصحابة جلس

(١٥) يريد ما به الاستعداد ، لا الاستعداد نفسه إذ لا شأن للعرض هنا .

(١٦) حديث قلب بدر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة في المعنى .

(١٧) كلاً بل أخرج الترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ضرب بعض أصحاب النبي ، ﷺ ، خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، حتى سمعها فاتى النبي ، ﷺ ، فأخبره فقال رسول الله ﷺ : هي المانعة هي المنجية تنجى من عذاب القبر .

على قبري ، ولم يعلم أنه قبر فسمع قراءة الميت سورة الملك من داخل قبره .
وبالجملة فما ذكرنا من عدم فناء الأجسام اللطيفة ، والأرواح ، وعلم
الأموات جميعاً بزوارهم ، وسماعهم أقوالهم ، ومخاطبتهم بل تميزهم بقوة العلم
والسماع عن الأحياء صحيح ثابت ، بحيث يخشى على منكركه الكفر . وناهيك
دليلاً على ما قلنا قوله تعالى .

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) ،
والأحاديث التي سبقت وما ورد في كتب الصحاح . فإن قلت : إذا كان
أموات المؤمنين والكفار متساوين في هذا الأمر فما الفرق بين أموات هؤلاء
وهؤلاء ، قلت كما أن عالم الشهادة الذي هو عالم الدنيا فيه المسجون والمطلق ،
والمنعم ، والمعذب ، وذو المناصب الرفيعة ، والأراذل ، والجنان ، والمزابل ،
كذلك عالم البرزخ فال مؤمنون ، والأنبياء والأولياء يعلمون بالزوار ويسمعون
كلامهم من مقاماتهم الجليلة ، وهم منعمون بأنواع النعم على قدر مراتبهم . وأما
الكفار والعصاة فإنهم يسمعون من مقاماتهم السافلة السيئة المستنة النجسة ، وهم
معدبون بأنواع العذاب على قدر مراتبهم . فإن قلت فأين مقر هذه الأجسام
لللطيفة وأين مقر الأرواح ؟ فاعلم أننا سمينا في هذه الرسالة الاستعداد^(١٨) المودع
في الأجسام الكثيفة لقبول الأجسام اللطيفة وحلولها فيها روحاً لكون العقل
والنقل يحكماً بحياة النائم ، وأنه ليس بميت وذلك بما يشاهد من تنفس النائم
وحركة نبضه في حال نومه ، وإن كان جسمه اللطيف مفارقاً لجسمه الكثيف

(١٨) أي ما يحصل به إشراف الاستعداد على الجسم الكثيف لقبول حلول الجسم اللطيف فيه على أن
يكون من قبيل ذكر المسبب ، وإرادة السبب سترأ لمراه عن غير أهله فيكون المراد به الروح الإنساني المعبر
عنه بالأمر الرباني ، واللطيفة الربانية المدركة العالمة المعدودة جوهرأ مجردأ تتصرف في النسمة التي هي الجسم
اللطيف ، وفي الجسم الكثيف في آن واحد ولذا تعد النسمة مطية للروح الإنساني .

سائراً في عالم البرزخ بسبب ركود حواسه بالنوم الحاصل من الأبخرة المرطبة للجسم والدماغ ، أو بسبب الإغماء الحاصل من فساد المزاج فهذا الروح لا يعلم مقره ومكانه ^(١٩) . وعلم ذلك عند الله تعالى .

وأما الجسم اللطيف الحال في الجسم الكثيف ما دام الكثيف مستعداً لحلول اللطيف فيه المفارق له في حالة النوم إلى وقت الانتباه ، وفي حال الموت إلى وقت سؤال الملكين في القبر ، وبعد السؤال إلى الحشر فهو يسمى بالروح أيضاً في لسان الشرع : وجميع ما ورد من حياة الشهداء وعدم موت المؤمنين وانتقاله من دار إلى دار ، وخلقه للأبد لا للموت ومقر أرواح الشهداء والمؤمنين ، ومقر أرواح الكفار فالمراد به هذا الجسم اللطيف الحال في الكثيف وهو المسمى بالروح في قوله ، صلى الله عليه وسلم ، في شهداء أحد « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش » ^(٢٠) .

وأنت خبير بأن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، لو أراد بالأرواح الكائنة في الأجسام الكثيفة التي سميها بالاستعداد المودع فيها لحلول اللطيف فيها لجاز التناسخ ^(٢١) من هذه الأجسام اللطيفة ، وكذلك يدل على ما قلنا الحديث الذي رواه عمر ابن عبد العزيز ، وهو ما أخرجه الحافظ أبو نعيم أنه قال : « إنما خلقتم للأبد لكنكم تنقلون من دار إلى دار » .

وأنت خبير بأن هذا الجسم الكثيف يفنى ويصير تراباً ، فتعين أن يكون المراد

(١٩) لأن الجمهور على أنه جسم لطيف أيضاً ، وسبق أنه جوهر مجرد عند طائفة .

(٢٠) أخرجه محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢١) وهو باطل في الشرائع الإلهية ، وما به الاستعداد هو مدار الحياة فيتنى التناسخ بانتفاء قصد هذا

الروح الإنساني الذي هو مدار الحياة .

بها الأجسام اللطيفة . لا يقال إن الروح الذى سميتوه بالاستعداد المودع فى الكثيف هو المنتقل من دار إلى دار وهو المراد - والله أعلم - بقوله عز وجل : (قل الروح من أمر ربي) .

إذا علمت ذلك فاعلم أن مقر أرواح المؤمنين التى هى أجسامهم اللطيفة هو السماء السابعة ، على ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ ، أنه قال (٢٢) : « أن أرواح المؤمنين فى السماء السابعة ينظرون إلى منازلهم فى الجنة » . وروى أم بشر رضى الله عنها - وهى صحابية - قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ونسمة الكافر فى سجين » (٢٣) .

فإن قلت كيف يعلم الميت الزائر ويسمع كلامه وهو فى السماء السابعة وجسمه الكثيف صار تراباً ، وكذا الكافر كيف يسمع وهو مسجون فى سجين ، قلنا : هذا محل بروز جواهر هذه الرسالة ، فكانت معدن الجواهر فاسمع لما نقول وانظر إلى ما أودعه الله تعالى فى الإنسان من الخواص التى تحير العقول . ثم تفتن أن الله تعالى لما جعل الإنسان مركباً من جسم كثيف وهو الجسد . وجسم لطيف وهو السائر فى حالة النوم ومن روح هو الرابطة بينهما جعل الكثيف مربوطاً بعادات بحيث لا يقطع المسافة إلا بالخطى ، ولا يستعلى إلا بالصعود ، ولا يشبع إلا بالأكل ، ولا يروى إلا بالشرب ، ولا ينفق إلا بالكسب إلى غير ذلك من العادات . وجعل الجسم اللطيف مربوطاً بنفخ العوائد بحيث لا يستحيل عليه شيء فتراه إذا فارق هذا الكثيف فى حالة النوم ، يطير فى الهواء ، ويمشى على

(٢٢) أخرجه الديلمى وليس بذلك .

(٢٣) ولفظ ابن منده : أن أرواح المؤمنين نسمة تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وأن نسمة الفاجر فى

سجين .

الماء ، ويجتمع بالأنبياء ، ويقطع من المشرق إلى المغرب في لحظة ، ويصعد بالطيران إلى العرش ولا يستحيل عليه شيء مما هو معروف من حال النائم ، ثم إنه إذا رأى نفسه عند العرش وأيقظه أحد يرجع ويحل في الجسم ، ويستيقظ النائم مقدار طرفة عين ، ولا يحصل للجسم الكثيف انزعاج عند حلوله فيه بل يستيقظ ولا يعلم كيفية حلوله ، هذا مع بعد المسافة من العرش إلى الأرض . وكل هذه الأشياء إنما لا يستحيل عليه لكونه لطيفاً ، وهكذا الأجسام اللطيفة من الملائكة وغيرهم .

إذا علمت ذلك فاعلم أن الأنبياء ، والأولياء لما تحققوا بعدم استحالة خرق العوائد على الأجسام اللطيفة لطفوا أجسادهم الكثيفة أيضاً بأنواع الرياضات ، والمجاهدات ، ومخالفة النفس وترك الشهوات حتى تلطفت أجسادهم الكثيفة ، وصارت مضاهية لأجسامهم اللطيفة وظهرت منهم المعجزات ، والكرامات ، وجميع خوارق العوائد لعدم استحالة شيء على الأجسام اللطيفة .

ثم اعلم أن الأموات يعلمون بزوارهم ، ويسمعون كلامهم (٢٤) ، ويتأذون بمن يجلس على قبورهم بأجسامهم اللطيفة وإن كان ثمة مسافة . وقد أخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » (٢٥) .

(٢٤) قال سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد (٢ - ٣٢) : « الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية ، واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء سبباً الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا ، ولهذا يتفجع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استئزال الحيريات واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً ما بالبدن والتربة التي دفن فيها ، فإذا زار الحي تلك التربة وتوجهت تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقة وإفاضة .

(٢٥) في سنده يحيى بن ريمان وعبد الله بن سميان وهو ابن زياد .

« وأما الذين لا تأكل الأرض أجسادهم فلهم أحوال وأسرار تحير العقول^(٢٦) ، ولا يجوز كشفها وإفشاؤها . ومن كان ذا ذهن وذكاء يتفطن لها بما رمزنا في هذه الرسالة والله تعالى أعلم » .
تمت رسالة حقيقة الإنسان للإمام جلال الدين الدواني رحمه الله تعالى .

(٢٦) بل أرواح هؤلاء الكل كالسيوف المغمدة ما دامت في أجسادها ، وعند انسلاخها من الأجساد تصبح كالسيوف المجردة في قوة المضاء كما هو مشروح في موضعه ، وترى ابن القيم يعزو إلى ذلك الروح هزم جيوش فليراجع كتاب الروح له .